

الخطبة الثالثة والستون آداب في معاملة الزوجة وبعض حقوقها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، الحمد لله لا نحصي ثناء عليه كما أثنى هو على نفسه، الحمد لله حتى يرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى صحابته الكرام، اللهم آمين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» البخاري (5066) - مسلم (1400). والباءة هي: الكفاءة من مال وصحة، والقيام بأعباء الزوجية.

1. جعل الله تعالى الزواج آية من آياته فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الروم: 21 / 30]، الزواج آية من آيات الله تستحق التدبر والتأمل لأن سعادة الإنسان الكبرى في الشريك، شريك العيش والفراش، شريك الخصوصية، شريك التملك، شريك القلب، آية من آيات الله لا تتحقق إلا بين الزوج وزوجته، يرى ذلك ويعيشه سليم الفطرة، سليم النظر، سليم الفكر والعقل، أما المِعْوَج، والشاذ، والأحمق الذي لا يفكر ولا يعقل فما له حظ من هذا، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ [النحل: 21 / 30].

لما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [الروم: 21 / 30]، استوقفتني كلمة (آياته)، والتي قال العلماء: إن معناها: معجزاته الدالة على عظمته وكمال قدرته، والدالة على رحمته وحكمته وعلمه بخلقه، الآن بعد أن فهمت معنى آياته، رجعت إلى السورة فوجدت أن الله سبحانه ذكر جملة من آياته فقال سبحانه:

1. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (٢٠) [الروم: 30 / 21].
2. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢١) [الروم: 30 / 21].
3. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَيْكَرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢) [الروم: 30 / 22].
4. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ (٢٣) [الروم: 30 / 23].
5. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤) [الروم: 30 / 24].
6. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (٢٥) [الروم: 30 / 25].
7. ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْأَنْهَارُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤٦) [الروم: 30 / 46]. هذه المعجزات والآيات الدالة على عظمته وكمال قدرته، بدأ بأعظمها من خلق الإنسان من تراب، ثم خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، فقدّم سبحانه وتعالى ذكر: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ على خلق السموات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان، والمنام، وابتغاء الفضل، ورؤية البرق، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، والقيامة، والخلق بعد الموت، والحشر، وإرسال الرياح، ورحمته سبحانه وتعالى بكل شيء، وجريان الفلك، وابتغاء العيش والحياة لكل الكائنات بفضل وكرمه وجوده، قدّم: (خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) قدّم هذه المعجزة: (من الزوجة، والسكن، والمودة، والرحمة) على كل شيء بعدها، يا سبحان الله! ما أعظمها من معجزة! وما أكرمها وما ألطفها من الله سبحانه وتعالى! أفلا يجدر بنا أن نقدر هذه المعجزة ونحترمها ونصونها بعد علمنا بأن الله سبحانه قدّمها على كل شيء؟ فكر بها.

2. الزوج والزوجة من طينة واحدة، اشتركا في الصفات، نقص وضعف وخطأ، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُورَاتِكُمْ الَّتِي خَلَقْتُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1 / 4]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98 / 6]، قول الخالق جلّ وعلا: من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، تركيبة وطينة متماثلة له ما لها، ولها ما له، وفيها ما فيه، وفيه ما فيها. أجزاء تُكْمِل بعضها بعضاً.

3. ثم التعبير القرآني الدقيق البديع الجميل: بأن جعل الزواج سكن للزوجين، كل الناس بحاجة إلى سكن، والسكن تعبير عن الستر، تعبير عن السعادة التي يطمح إليها كل إنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189 / 7]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21 / 30]، وكون الزواج سكن، والسكن حاجة أساسية، فالزوج والزوجة يتمسكان به ويحافظان عليه؛ لأن السكن راحة وطمأنينة وسعادة وهدوء وأمان واطمئنان.

4. الله سبحانه جعل بين الزوجين مودة ورحمة، هذا وعد من الله تعالى فقال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21 / 30]، لأن خالق الكون علم وقدر بأنه حتى تستقيم الحياة لا بد من علاقة، ولا بد من سكن، ولا بد من مودة، ولا بد من رحمة حتى تستمر الحياة ويستقيم نظام الحياة. الإنسان أيضاً كان ذكراً أو أنثى، يريد حباً، يريد سعادة، يريد شريكاً، يريد سكناً، يريد طمأنينة، يريد مودة، يريد علاقة خاصة، هذه العلاقة لا تقوم بين اثنين لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، لا تقوم إلا بين زوج وزوجة، علاقة فريدة فيها كل الخصائص التي ذكرت، والله يحميها، والله يتولاها والله أنشأها حتى تستمر الخليفة وتستمر الحياة وحتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165 / 6].

5. ثم استخدم الله تعبيراً فريداً جميلاً يحمل في طياته معانٍ لا حصر لها، نعم إنه التعبير القرآني المُعْجِز بكل نواحيه وبكل طرقه، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187 / 2]، قل لي - بربك - من يستطيع أن يأتي بمثل هذا

التعبير إلا رب الأرباب؟ سماها لباس لي، وسماني لباس لها، ماهي وظيفة اللباس؟ ولماذا اللباس؟ لأن اللباس يباشر الجسد، لأن اللباس أقرب شيء إلى الإنسان، وهي كذلك، اللباس حماية يحمي الجسد من كل شيء، من الحر والبرد والأذى، فالزوجة حامية تحمي الزوج من كل ما يؤذيه، وهو حاميها من كل ما يؤذيها وحاميها من كل ما يزعجها، واللباس حشمة ووقار، فالزوجة تستر العورة وتستتر النقائص، وتستتر التشوهات، وتحمي ماديًا ومعنويًا وجسديًا وخلقياً، وهو كذلك، جمع كل ذلك الله سبحانه بكلمة واحدة: (لباس).

6. وسمى الله سبحانه وتعالى الزواج بكلمة إعجازية أخرى، تحوي معاني كثيرة، تحمل معنى: القوة، والثقة، والاندماج، والتماسك، والتشابك، والعهد، والوعد، والحفاظ؛ فقال تعالى: ﴿وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 4/21]، سمّاه: ميثاق، وأضاف صفة أخرى ليصبح أشد وأقوى فقال: غليظًا، ميثاق وعهد بالحفاظ على شرفها وأخلاقها، بالحفاظ على سمعتها، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها) مسلم، وعن حكيم بن معاوية عن أبيه: قلت: يا رسول الله ما حق زوج أحدنا عليه؟ قال ﷺ: «تطعمها إذا أكلت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت» حم - د - ن - ج ه - حب - ك.

فهل تبيّن لنا الميثاق الغليظ في الحماية من كل ما يؤذيها؟ وخاصة في شرفها وعفتها ودينها وسرّها، وقوله عليه الصلاة والسلام في المساواة في المأكل والملبس منعاً للأناية، ومنعاً من حظ النفس، فبعض الرجال يريد عند الخلاف وعند المشاجرة أن يضيّق على زوجته إن كان في المأكل أو الملابس، فجاء رسول الله ﷺ ليمنع ذلك، ثم: لا تضرب الوجه؛ لأن الوجه كرامة فيجب أن يُحترم ولا يهان، ثم قال: ولا تُقبِّح؛ أي: لا تسب ولا تشتم ولا تعير ولا تنتقص من

أهلها ومن حسبها ومن نسبها، ولا تغلظ عليها في الكلام، فقال: ولا تُبَحِّح كلمة عامة شاملة جامعة، ثم: لا تهجرها إلا في البيت، وفي هذا صيانة لها وحماية لها، ورعاية لها حتى ولو كان هناك خلاف ونزاع، فواجب الميثاق الغليظ قائم، ومن حقها ومن واجبك أن تكون في البيت؛ لترعى حقوقها وضمنان سلامتها. هذا دين الله وهذه قوانينه، فليَر العالم ذلك.

7. ثم أمر الله سبحانه وتعالى وجعله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 4 / 19]، أمر من الله سبحانه وتعالى أن تعاشروهن بالمعروف، وكلمة المعروف شاملة للعطف والحنان، شاملة للمعاملة الطيبة، شاملة لأنواع الحسن كيف لا وهي الزوجة الحبيبة، هي آية من آيات الله، هي مني وأنا منها، هي السكن، هي اللباس، تكفل الله سبحانه بنا وجعل بيننا مودة ورحمة، هي سبب وسر استمرار الخليقة، هي عرضي، هي شرفي، هي أم أولادي، هي التي وصاني بها عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالنساء خيراً» متفق عليه، وقال عليه الصلاة والسلام: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» ت - جه - عن عائشة رضي الله عنه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم» ت - جه، وقوله عليه الصلاة والسلام: «وأنا خيركم لأهلي» أي: هذه سنته، وهذه طريقته، فيا مسلم، يامن تحب رسول الله ﷺ اقتد به وتأس بسنته فإذا كان هو كذلك، فكن أنت كذلك، لأنه عليه الصلاة والسلام ما من خيرٍ إلا ودلنا عليه، فهذا توكيد فوق الأمر، أي أنه بعد أن علمك الخير، علمك وأمرك أن تقتدي به إذا كنت تحبه وتحب اتباعه، وتحب أن تنال شفاعته، وأن تحشر تحت لوائه، ثم إن الله تعالى أمر بالوفاء وبمراعاة العشرة فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 2 / 237].

أمر من الله تعالى بالوفاء، وتخويف وتحذير من الله سبحانه بأنه بصير مطلع على خوالج القلوب وما يحاك في الصدور. فهذه زوجتك أم أولادك وأهلك وسكنك

ولباسك. ولكن قد يكون هناك فتور أو خلاف أو أو... وهذا واقع ومُشاهد، لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 4 / 19]، فعلى المؤمن التريث والصبر ولينظر إلى محاسن زوجته وليغض بصره عما يكره، وقد علمنا رسول الله ﷺ ذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه إذ قال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها غيره» مسلم. أي: أن لا يبغضها بغضاً كلياً يجعله يطلقها أو يفارقها أو يقاسيها أو يزعجها فهذا لا ينبغي، فكلنا أصحاب أخطاء وكلنا لنا ما يعيننا، ويجب عليه أن يتغاضى عما يكره ويُذكر نفسه بمحاسنها، وليذكر أيضاً مساوئه هو وأغلاطه وغلاطاته. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت» حب - صحيح الجامع (660).

وجاءت أسماء بنت يزيد الأنصارية فقالت: يا رسول الله ﷺ أنا وافدة النساء إليك: إن الرجال فضلوا علينا بالجمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز والحج والعمرة والرباط... قال عليه الصلاة والسلام: «انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حُسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله» ابن عساكر - حديث حسن.

وعن حصين بن محصن أن عمه له أتت النبي ﷺ فقال لها: «أذات زوج أنت؟ قالت: نعم، قال ﷺ: فأين أنت منه؟ قالت: ما ألوه إلا ما عجزت عنه، قال ﷺ: فكيف أنت له؟ فإنه جنتك ونارك» حم - ن - صحيح الترغيب والترهيب.

زار سلمان الفارسي أخاه أبا الدرداء يوماً فرأى أم الدرداء - واسمها خيرة بنت حدرد -، رآها متبذلة، يعني غير متهيئة، ولا مصلحة حالها، وترتدي ثياباً عادية، فقال لها سلمان: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، أو ليس له حاجة في النساء، أو قالت: يقوم الليل ويصوم النهار، فجاء

أبو الدرداء وصنع طعاماً وأكرم سلمان وضيافته، وقال لسلمان: كُلْ إني صائم. فقال سلمان: ما أنا بأكل حتى تأكل معي. أي يأمره أن يفطر، فأكل معه كرامة له وإرضاءً، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم الليل؛ فقال له سلمان: نَمْ. فنام أبو الدرداء، ثم ذهب أبو الدرداء ليقوم الليل، فقال سلمان: نَمْ، فنام، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فقاما فصليا جميعاً فقال سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى أبو الدرداء الرسول ﷺ، وذكر له ما فعل سلمان به، فقال عليه الصلاة والسلام: «صدق سلمان، صدق سلمان» البخاري (1968).

عن الشعبي قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب فقالت: أشكو إليك خير أهل الدنيا، إلا رجلاً سبقه بعمل أو عمل مثل عمله: يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم تجلأها الحياء فقالت: أقلني يا أمير المؤمنين! فقال: جزاك الله خيراً! فقد أحسنت الثناء، قد أقلتك. فلما قالت قال كعب بن سور: يا أمير المؤمنين! لقد أبلغت إليك في الشكوى! فقال عمر: ما اشتكت؟ قال كعب: زوجها، قال عمر: عليّ بالمرأة، فقال لكعب: اقض بينهما، قال: أقضي وأنت شاهد؟! قال عمر: إنك قد فطنت إلى ما لم أفطن، فدعا زوجها فلما جاء قال كعب: فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَنكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: 4 / 3] صم ثلاثة أيام، وأفطر عندها يوماً، وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة، فقال عمر: لهذا أعجب إلي من الأول، فبعثه قاضياً لأهل البصرة، (ابن سعد).

وكان ابن عباس رضي الله عنه يتزين ويتعطر لزوجته، وكان رسول الله ﷺ يساعد أهله ويقوم على خدمتهم، ويضحك معهم ويؤاكلهم ويشارهم ويسأل عن حالهم، وكان يسابق السيدة عائشة رضي الله عنها ويسامرهما كما جاء في حديث أم زرع، وتركها تنظر إلى لعب الحبشة في المسجد، وكانت تغار عليه وتلاحقه، وكان يتركها مع صواحب لها يلعبن بحضرتة ويتضحكن وكان وكان ... أليس لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟ وما كان يتكلم الكلام الفاحش، ولا يؤذي أحداً بكلامه أو يده عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والمرأة لها

ثواب عظيم في الحمل والولادة والرضاعة وتربية الأولاد والصبر عليهم، كل حياتها جهاد في جهاد، وعن راشد بن حبيش أن رسول الله ﷺ دخل على عبادة بن الصامت رضي الله عنه في مرضه فقال عليه الصلاة والسلام: أتعلمون من الشهيد من أمتي؟ فقال عبادة رضي الله عنه: ساندوني فأسندوه، فقال: يا رسول الله الصابر المحتسب، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شهداء أمتي إذاً لقليل؛ القتل في سبيل الله شهادة، والطاعون شهادة، والغرق شهادة، والبطن شهادة، والنفساء يجرها ولدها بسرره إلى الجنة» م - د - حم - الدارمي.

قال ﷺ: «ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الله في الجنة، ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود والعوود التي إذا ظلمت قالت: هذه يدي في يدك لا أذوق غمضاً حتى ترضى» سنن الدارقطني في الأفراد، طب - عن كعب بن عجرة، وقال ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً إذا كان ساكنها فيها لم يَخْفَ عليه ما خارجها، وإذا خرج عنها لم يَخْفَ عليه ما فيها، قيل: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأدام الصيام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام، قيل: يا رسول الله، وما طيب الكلام؟ قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد» إنها تأتي يوم القيامة ولها مقدمات ومعقبات ومجربات، قيل: فما إدامة الصيام؟ قال: من أدرك رمضان فصامه ثم أدرك رمضان فصامه قيل: فما إطعام الطعام؟ قال: كل من قات عياله وأطعمهم، قيل: فما إفشاء السلام؟ قال: مصافحة أخيك إذا لقيته وتحيته، قيل: فما الصلاة بالليل والناس نيام؟ قال: صلاة العشاء الآخرة واليهود والنصارى نيام» (الخطيب - عن ابن عباس).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم تب علينا واغفر لنا وارحمنا، اللهم اغفر لنا وللمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

